الموسيقى الشرقية

بقلم منير الجم الطرابلسى

— ١ —

اطلعت بالأمس على مقالين ممتعين فى « الرسالة » الغراء حول فن الموسيقى: أحدهما للأستاذ قدرى حافظ طوقان ، والآخر للأستاذ عبد العزيز البشرى ، فسرنى منهما أن يطريا فن الموسيقى العربية ، ويتغنيا بعبقرية من اشتغلوا بهذا الفن الجميل من قدامى ومحدثين ؛ أقول وأؤكد القول : بأننى جد مغتبط بمقاليهما كعزاء للفن المغبون . . .

ولقد رغبت أن أشاركهما فيما ابدياه من العواطف السامية نحو موسيقانا ، فكتبت فى مجالى هذه نبذة عامة عن تطور الموسيقى الشرقية فى العهد الأخير ، وما طرأ عليها من الاصلاح والتجديد ، كموسيقى يغار على الفن ، ويؤدى نحوه الواجب المحتوم

— ٢ —

كانت الموسيقى فى جميع العصور مقياساً لروحية الأمم ، ورمزاً لأخلاقها ورقة طباعها ، واذا كان للشعر والادب والنحت والتصوير وغيرها من الفنون منزلة سامية فى النفوس ، فللموسيقى رتبة أسمى وأعلى ، واذا كان لهذه الفنون أياد بيضاء على تهذيب الطباع الانسانية ، وصقل عواطفها ، فأحر بالموسيقى أن تنال السبق فى هذا المضمار ، اذ تتعدى ذلك الى شفاء بعض الأمراض ، وطرد الهموم من النفوس ، ومعالجة الحيوان والتلطيف من شراسته ووحشيته ، فاسمها مقرون على الدوام بالروعة والاعتبار . . .

نشأت الموسيقى فى دورها الأول مع الانسان الساذج المقلد لمظاهر الطبيعة الفاتنة ، فاندفع بميله الغريزى ، وعواطفه الكامنة لاتقان هذا التقليد المستحب اللذيذ ، حتى انقلب على مر العصور الى فن جميل له مكانته بين الفنون

عنيت الأمم الغابرة من مصريين ويونان ورومان ، وصينيين وهنود ويابان وفرس وعرب بالموسيقى عناية قصوى جعلتها تتطور فى أحضانها بخفة ولباقة ، حتى وصلت الينا بحلة قشيبة ؛ وما أن افترق الشرق عن الغرب حتى كانت موسيقى الشرق غير موسيقى الغرب ؛ طارت الاولى فى سماء الروح والعواطف ، ثم ما لبثت أن هبطت قليلا ، فلا هى بالهابطة ولا هى بالصاعدة ، متقلقلة بين الصعود والهبوط ؛ وأما الثانية فلا تزال جادة فى طريق المجد ، تقطع مراحل وأشواطاً من التقدم ، وغدت لدى الذوق الغربى أسمى وأشهى ما يلذ للسمع ويستطاب

— ٣ —

بعد أن انتقلت الموسيقى الى العرب برعوا فيها ، وجددوا ما بلى منها ، وبقيت فى عهدهم زاهية ببغداد ومصر والأندلس وغيرها من البلاد العربية حتى دالت دولة العرب ، فقبعت فى زاوية الاهمال حقبة من الزمن ، تترقب من ينتشلها من وهدتها ، ويقيلها من عثارها بعد ذاك العز والمجد ، حتى قيض لها منذ قرن تقريباً من يذود عن حقها المهضوم ويرفع من شأنها ولو قليلا أمثال الأساتذة المرحومين : عبده الحمولى ، والشيخ يوسف النيلاوى ، ومحمد عثمان ، وعبدالحى حلمى ، والشيخ سلامه حجازى الذى نبغ فى الغناء المسرحى وانفرد به ، وكذلك احمد اللبث ، وأمين بنايه ، وابراهيم سهلون ، وغيرهم من عظماء الفن ، ومشاهير الملحنين والعازفين الذين نهضوا بالموسيقى العربية نهضة مباركة لا بأس بها ، وخاصة فى قسم الغناء والانشاد ؛ ثم كان منهم النابغة المرحوم الشيخ سيد درويش الذى يعد من المجددين ، واليه يرجع الفضل فى تعديل فن الغناء العربى تعديلا لطيفا ، وهو الذى غنى بنغمة « الحجاز كار كردى » التركية ، واستعملها فى كثير من أغانيه وأدواره الخالدة ، فزاد الفن بذلك عذوبة ورقة ، وكان يحق آية فى العبقرية والنبوغ . . . وأخيراً جاء نابغتنا الشاب الأستاذ محمد عبد الوهاب وأمثاله ، وهو مجدد بكل ما فى الجدة من معنى ، وقد أضاف الى الفن مما أضاف من عبقرية فذة تتجدد ، ونبوغ مضطرم يزكو ، ولنا كبير أمل بمجهوده الفنية التى ستسمو إن شاء الله بالموسيقى الى أقصى مراتب النجاح .

مازال الأستاذ محمد عبدالوهاب يخدم الفن خدمة يشكر عليها ويثاب ، فجدد منه أصولاً ، وأصلح فيه أنواعا ، ثم أضاف اليه أقساماً طريفة من الأنغام الأفرنجية ، الى غير ذلك من التجديد

الموافق للذوق الشرقي والعربي ، وغدت اسطوانات أغانيه تسمع حتى في بلاد أوربا بكل إعجاب ، يشاركه في هذا التجديد نخبة صالحة من غواة الفن ، وجمعيات ونوادٍ فنية أسست في مصر وسوريا وغيرهما ، يجاهدون جميعاً في تعزيز الموسيقى الشرقية لتستعيد مكانتها الأولى ، ويكون لها الصدر في الموسيقى العالمية

— ٤ —

هذا في مصر وسوريا وبعض البلاد العربية الأخرى ، وأما في البلاد التركية ، فقد وجدت الموسيقى الشرقية منتجعاً خصبا ، فتطورت في سنين قلائل ، حتى لتضاهي كل موسيقى عالمية ، والحق يقال : إن للأتراك فضلا كبيراً على هذا الفن ، فقد اخترعوا أنغاماً لم تكن تعرف من قبل ، وحسنوها وهذبوا كثيراً من الألحان ، وجعلوا في موسيقاهم أنواعا منوعة من القطع الفنية الخالدة ، ونبغ لديهم عظماء أفذاذ ، أمثال الأساتذة المرحومين : حافظ ، ومونلا عثمان ، وقره قاش القديم ، ووسيلاكي المغني المشهور ، وعثمان بك ، وعاصم بك ، والطنبوري جميل بك ، و « الكمنجاتي » طاتيوس ، وواسلاكي ، وغيرهم ممن أكسبوا الفن كنوزاً ثمينة لا تقدر ، وقد جاء من بعدهم مجددون معاصرون فأدخلوا تحسينات جمة عليه ، ولقحوا بعض أقسامه وأجزائه بشيء من الأنغام الافرنجية اللطيفة ، كما أنهم أضافوا فن تأليف الأصوات (Harmonie) على فرع من موسيقاهم ، ولاسيما دار الفنون والموسيقى في الأستانة ، التي تعد في طليعة المجاهدين في سبيل ترقية الموسيقى الشرقية وتعزيزها .

وأما في بلاد فارس والهند والصين وغيرها ، فالموسيقى مازالت مهملة أو كالمهملة ، الا في بلاد اليابان وشرق الصين فآخذة في التقدم السريع ، غير أن الموسيقى الغربية طغت عليها ، وتكاد تكون معها في صراع عنيف ، حيث لكل منهما أحزاب ومشايعون ، والغريب في الموسيقى الشرقية هناك أنها تكاد تضارع الأنغام العربية والتركية في اللهجة والأصول ، فقد ذكر صديق لي أنه كان منذ بضع سنوات في بلدة شنغاي من أعمال الصين الشرقية ، وبينما كان ماراً في حي صيني سمع انغاماً عربية من مقام « الحجاز » فظن لأول وهلة أن العازف على الآلة ربما كان عربياً ، ففرح لهذه المصادفة ، ورغب أن يجتمع به ، ولشد ما كانت دهشته حينما وجده صينياً عريقاً في الصينية ، لايدري من أمر العرب شيئاً ، مما يدل على أن لايحاء الشرق على سكانه في كل صقع أثره الشديد حتى بموسيقاه العذبة .

— ٥ —

يعيب الغربيون موسيقانا بالجمود والتشابه والتكرار ، ويتهموننا بقلة الأنواع الموسيقية ، وعدم تأليف الاصوات ، وادماجها في القطعة الموسيقية جملة واحدة (Harmonie) ؛ ولئن كان هذا النقص معيباً في موسيقانا ، فان قليلاً من الجهد والعناية يذهب به ، وانني لأرى أن هذا النقص الذي نعنيه لم يحصل من التهاون والاهمال ، بل هي طبيعة الشرق الهادىء توحي لموسيقاه ألطف الانغام الفردية العذبة .

انني لا أنكر على الغرب محسناته في موسيقاه ، كلا ، ولا أنكر عليه التجديد الفني الذي أضافه عليها ، فجعلها في مراتب سامية تفوق حد الابداع ، كلا ، ولا أنكر عليه أيضاً استفادة الموسيقى الشرقية والعربية من هذا الرقي والتجديد ، ولكن ذلك لا يمنعني من الجهر بجمال الموسيقى الشرقية اللطيفة اذا ما بذلنا في سبيلها جهداً ومثابرة واخلاصاً ، ولاسيما وهي العذبة بانغامها ، الزاخرة بألحانها ، الطافحة باسمى العواطف والشعور . . !

— ٦ —

إننا اذا دققنا في الأنواع الموسيقية لدينا وجدناها ضئيلة جداً بالنسبة الى غزارتها في الموسيقى الغربية ، يؤيد ما يعيبنا به الغربيون وهي على التقريب كما يلي : الموشحة ، الليالي ، الدور ، القصيدة ، الغناء المسرحي ، الطقطوقة ، الموالي .

فالموشحة : — قطعة غنائية من أرق أنواع الغناء ، اذا ما كانت متينة اللغة والمعنى ، وليس كما يمسخها بعض المغنين بلغة ركيكة ، وألفاظ سمجة ، وتطويل جاف ممل . . .

الليالي : — « ياليل يا عين » فهذه لا حدود لها ، تابعة لشعور المغني أو العازف ، وسمو إحساسه في الأنغام ، وقدرته على الانتقال بينها بلباقة وأصول ، حتى ينتهي الى ما بدأ منه ، واذا كانت لموسيقانا مزية تنفرد بها ، فتكون من هذه الناحية ، إذ يعجز غيرها عن ترديد « الليالي » الالهامية ، وعزف « التقاسيم » الروحية ارتجالاً ، ما لم تكن مسجلة ومخطوطة ، أو محفوظة من سابق عهد .

الدور : — قطعة غنائية مركبة من جزئين : الأول يسمى « مذهب » ، والثانى (دور) وفى الأخير تتعدد الأنغام اللذيذة المثيرة للطرب والسرور ، وما زالت الأدوار لها مكانتها فى الموسيقى العربية ، وهى آخذة فى التقدم والرقى ، من متانة فى اللفظ ، وطرافة فى النغم ، مما يجعلها فى الصف الأول .

القصيدة : — قطعة شعرية تنشد بألحان معينة ، وتكون عذبة مطربة اذا كانت محتوية على معان سامية وأنغام مؤتلفة ، وقد أصبحت فى الآونة الأخيرة من الأنواع الراقية نظماً ونغماً ، يعالجها الشعراء والموسيقيون بكل همة ونشاط .

الغناء للسرحى : — قطعة غنائية تمثيلية ، لها أصول خاصة فى الغناء ، بحيث تتناسب الأنغام مع معانى كل جزء منها ، وتوافق الغرض المقصود ؛ فالعتاب — مثلاً — فى بيت شعرى له نغم يناسبه ، وكذا الاستعطاف له لحن يوافقه ، وتزيد بذلك وضوحاً وتأثيراً فى النفوس ؛ وقد عنى الشعراء والموسيقيون بهذا الضرب من الغناء ، فنظموا ولحنوا قطعاً تناسب المقام أمثال المرحوم أمير الشعراء شوقى بك ، والأستاذ محمد عبد الوهاب ، وغيرهما من غواة الفن ، وهواته ومجدديه .

الطقطوقة : — قطعة غنائية حاوية على مذهب ودور بسيط ، فالمذهب هو القطعة الأولى منها اللازمة للدور فى نهاية كل جزء من أجزائه ، ولغتها على الغالب عامية ، وهذا هو موضع العيب الفاضح فيها .

الموالياً : — وهو فى نظرى أشد جوداً من غيره ، حيث الركاكة فى الألفاظ ، والترادف فى المعنى الواحد للعشق والهيام المبتذل ، ولا يخرج عن كونه أنيناً متواصلاً ، ونواحاً مؤلماً ، لا أثر للحياة فيه ، وموجباً للحزن والأسف الشديد ؛ ولدينا اليوم أيضاً نوع اسمه « المنولوج » أو « الغناء الوجدانى » الذى اقتبس أخيراً من موسيقى الغرب ، وقد برع فيه الأستاذ محمد عبد الوهاب وأبدع فيه أيما إبداع .

— ٧ —

إن الأصوات تختلف فى سيرها أثناء العزف أو الغناء ، فتكون أنواعاً متنوعة يسمى كل منها نغماً ، فالأنواع الموسيقية الآنفة الذكر يتركب مجموعها اليوم من أنغام كثيرة اختصر على أهمها :

(١) نغمات السيكاه (٢) نغمات العشيران (٣) نغمات العجم عشيران : — أوج — عراق (٤) نغمات الراست : راست ، نهاوند ، حجاز كار ، حجاز كار كردى (٥) نغمات الديكاه : البيات ، حجاز ، صبا ، عشاق ، بيات شورى (٦) سيكاه (٧) جهاركاه (٨) حسينى ، الى غير ذلك من الأنغام الكثيرة المستعملة فى الموسيقى العربية .

وأما الأنواع الموسيقية لدى الأتراك فقريبة الشبه من العربية غير أن الأنغام لديهم أكثر وأغزر ، زادت فى مادة الموسيقى الشرقية زيادة تذكر ، وخاصة عنايتهم الفائقة بتأليف القطع الفنية التى تعزف على الآلات ، فهى بحق قطع خالدة جديرة بالأكبار والأعظام ؛ ولقد استفادت الموسيقى العربية من هذه القطع الفنية الطريفة والأنغام الاضافية المذهبة ، ما جعلها مدينة الى الموسيقى التركية مادة ومعنى ، والأنواع المعروفة لدينا من هذه المعزوفات الفنية هى : البشرف ، والسماعى ، والدولاب فالبشرف : قطعة فنية غزيرة بالأنغام المنسجمة ، مركبة من جزئين أو ثلاثة أجزاء أو أربعة ، والجزء الواحد يسمى (خانه) ، تعزف على الآلات الشرقية بواسطة (النوته) الرموز الاصطلاحية ضمن قوانين وأوزان محكمة كأوزان الشعر لا يمكن للعازف أن يشذ أو يخرج عنها ، ويكون عزفها عادة أبطأ من (السماعى) ، وهى على أنواع من الوزن والقياس والعزف ، لا مجال لذكرها الآن .

وأما « السماعى » فهو كالبشرف فى أنغامه وتركيبه ، غير أنه أصغر منه فى مجموعه وأسرع فى العزف ، وله أوزان ومقاييس تختلف عنه ، وأما « الدولاب » فهو قطعة فنية صغيرة بأوزان معلومة ، تعزف عادة قبل الشروع فى الغناء تمهيداً للنغم المنوى التغنى به ؛ وتوجد غير ذلك ضروب مختلفة ، مقتبسة أصولها من الضرب : فى الرقص والتمثيل والوصف . . . الخ كالفالس — مثلاً — ، والبولكة ، والمارش من القطع الفنية المصورة لنوازع النفس ، ومظاهر الطبيعة الفاتنة ، ووحى جمالها السامى تصويراً دقيقاً موافقاً بعد تعديلها للذوق الشرقى ؛ ومن جملة ما اقتبس من الموسيقى الغربية : الرموز أو العلامات الموسيقية (نوته) التى